التفكير مثل جبل دراسة بيوسيميائية لوصف الجبل في الشعر العربي

علوي أحمد الملجمي
جامعة البيضاء- اليمن
a.almalgami@yahoo.com
DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v5i4.461
Albaydha University

الملخص

تنطلق الدراسة مما تقدمه البيوسيميائات والنقد الأدبي البيوسيميائي (المرتكز عليها) من أجل إثبات أن النص الشعري العربي في وصف الجبل (من خلال نموذجين: امرئ القيس، وابن خفاجة) يُمَثِّل مبدأ "التفكير مثل جبل" الذي شاع في الدراسات البيئية الحديثة. بينت الدراسة أن الجبل -كما هو ممثل في النصين- يمتلك عالمًا سيميائيًا، وأنه ممثَّل بطريقة ما في العالم السيميائي للشاعر، وأن هذا التمثيل جعل الإنسان العربي القديم/الشاعر يدرك المسؤولية السيميأخلاقية (رعاية الحياة من خلال رعاية سيميوزيس الطبيعة) وينهض بها، ومَثَّل ذلك نصيًا، وهذا يعني أنه تمتع بوعي بالنظام البيئي وأهميته، وأهمية التفكير مثل الطبيعة للمحافظة عليها.

الكلمات مفتاحية: (البيوسيميائيات، التفكير مثل جبل، وصف الجبل، الشعر العربي، النظام البيئي)

Thinking like a mountain: A biosemiotic study of the description of the mountain in the Arabic poetry

Abstract

The study proceeds from the presentation of biosemiotics and biosemiotics literary criticism (based on it) in order to prove that the Arabic poetic text in the description of the mountain (through two models: Imru' al-Qays and Ibn Khofajah) represent the principle of "thinking like a mountain" which popularized in modern environmental studies. The study showed that the mountain as represented in the two texts has a semiotic world that is represented in some way in the semiotic world of the poet. This representation made the ancient Arab man/poet realize the semioethical responsibility (taking care of life through the care of the semiosis of nature), promoting it and representing that textually. This means that the ancient Arab man/poet enjoyed awareness of the ecosystem, its importance, and the importance of thinking like nature to preserve it.

***Keywords**: (Biosemiotics, Thinking like a mountain, Description of the mountain, Arabic poetry, Ecosystem)*

مقدمة:

الإنسان -بوصفه حيوانًا سيميائيًا (يمتلك ميتاسيميوزيس)- مسؤول عن الحفاظ على النظام البيئي ماديًا وسيميائيًا، أي أن عليه إدراك العوالم السيميائية للطبيعة من أجل ملاحظة تطورها وإدراك مستقبلها. الإنسان جزء من هذا النظام البيئي، تشترك معه فيه كل الأحياء الطبيعية، فعدم إصغائه لكل عناصر هذا النظام البيئي وإدراكه لها يهدد سلامته ومستقبله، فعدم الإدراك يعني عدم التقدير والمشاركة، وهو ما يعني الجهل بما يضر هذا النظام مما يؤدي إلى أخطاء قاتلة.

العنوان الرئيسي لهذه الدراسة "التفكير مثل جبل" يستخدم المصطلح الذي صاغه ألدو ليوبولد، وهو عنوان مقال له "Thinking like a mountain" منشور في كتابه A Sand County Almanac. يناقش ليوبولد عملية التفكير بوصفها وجهة نظر شاملة حول مكانة المرء في النظام البيئي بأكمله. (Leopold, 1989, 129-133) التفكير مثل الجبل يعني أن يكون لديك تقدير كامل للترابط العميق بين العناصر في النظم البيئية، إنه تمرين بيئي يستخدم الشبكة المعقدة للبيئة الطبيعية بدلاً من التفكير كفرد منعزل. (Thiele, 2011, 30) ابتكر ألدو ليوبولد هذا المصطلح أولاً نتيجة لمشاهدة موت الذئب الذي تم إطلاق النار عليه وكان يموت ببطء. في تلك الأيام التي كانت فيها مغامرات ليوبولد، لن يُفَوِّت أي شخص قتل ذئب لأن عددًا أقل من الذئاب يعني المزيد من الغزلان؛ مما يعني حصيلة صيد أفضل. ومع ذلك، عندما رأى ليوبولد "النار الخضراء الشرسة تموت في عينيها"، كان يعلم أنه لا الجبل ولا الذئب يستحقان ذلك، يقول ليوبولد: «منذ ذلك الحين عشت لأرى دولة تلو الأخرى تستأصل ذئابها، ولقد شاهدت وجه العديد من الجبال خالية من الذئاب حديثا، ورأيت المنحدرات المواجهة للجنوب تتجعد مع ذهول من مسارات الغزلان الجديدة، لقد رأيت كل شجيرة وفسيلة صالحة للأكل يتم رعيها، في البداية للقضاء على فقر الدم، ثم أكلتْ لتموت. لقد رأيت كل شجرة صالحة للأكل تتساقط... في النهاية عظام قطيع الغزلان المأمول الجائع -الميت من تلقاء نفسه بشكل كبير جدا- مبيضة مع عظام المريمة (نبات) الميتة، أو تالفة تحت الخط العالي للعرعر... أظن الآن أنه مثلما يعيش قطيع الغزلان في خوف مميت من ذئابه، كذلك يعيش الجبل في خوف مميت من غزلانه، وربما لسبب أفضل؛ لأنه بينما يمكن استبدال الظبي الذي تسقطه الذئاب في غضون عامين أو ثلاثة، فإن النطاق الذي سحقته الكثير من الغزلان ربما لا تتم الاستعاضة عنه لعقود عديدة. وكذلك مع الأبقار، راعي البقر الذي ينظف منطقته من الذئاب لم يدرك أنه يتولى مهمة الذئاب في تقليم القطيع ليناسب النطاق، لم يتعلم التفكير مثل الجبل. ومن ثم لدينا أحواض الغبار والأنهار التي تغسل المستقبل في البحر». (Leopold, 1989, 132&133)

في هذا المثال، يوضح ليوبولد أن إزالة نوع واحد يمكن أن يؤدي إلى عواقب سلبية خطيرة في النظام البيئي. في حين أن تجنب التسلسل الغذائي هو إحدى طرق التفكير مثل الجبل، إلا أن هناك عددًا لا يحصى من الإجراءات البيئية الأخرى التي يمكن تصنيفها تحت هذا المفهوم الواسع والمترابط. استخدم هذا المصطلح في عدد من الكتابات اللاحقة والأفلام وحتى الموسيقى؛ لتؤكد على أن مفهوم "التفكير مثل الجبل" مبدأ بيئي لوجود مستدام. انطلاقًا من هذا فإن الحفاظ على النظام البيئي والحفاظ على الطبيعة المستدامة هي مسؤولية الإنسان، إذا عليه أن يفكر مثل الطبيعة ليدركها ويحافظ عليها. والشاعر إنسان، وهناك شعراء مثلوا هذه المسؤولية في شعرهم، ولدينا في النص الشعري العربي نماذج كثيرة، لكنني أقف في هذه الدراسة عند علاقة الشاعر العربي بالجبل كيف يفكر الشاعر العربي مثل الجبل، ويمثل عملياته السيميائية في نصه.

من هنا تأتي إشكالية الدراسة، فالجبل ممثل في النص العربي، لكن كيف يمكن أن نقرأ هذا التمثيل في ضوء المحافظة على النظام البيئي وأدوات البيوسيميائيات؟ وكيف يدرك الشاعر العربي الجبل (الجبل في أمفيلت الشاعر)؟، وما أمفيلت الجبل الممثل في النص؟ وما تمظهرات السيميأخلاقيات في النص المدروس؟ كيف كان الشاعر -والجبل كذلك- مسؤولًا عن رعاية الحياة، وكيف مثَّل النصُ الشاعرَ مفكرًا مثل الجبل؟ وكيف مثَّل ذلك دعوة إلى "التفكير مثل جبل" للمحافظة على النظام البيئي، من خلال إدراك الطبيعة وفهمها، وتقديرها ورعايتها؟

أستخدمُ نظرية تشارلز سندرس بيرس في العلامات ونظرية الأمفيلت (Umwelt) لجاكوب فان أوكسكيول، وما أنجزه جيسبر هوفماير وتوماس سيبيوك وكالفي كول في البيوسيميائيات، وما قدمه تيمو ماران ودبليو جون كوليتا في النقد الأدبي البيوسيميائي؛ لبيان كيف يمثل النص الأدبي النظام البيئي، وكيف يمكن للنمذجة الفنية أن تكشف عن العوالم السيميائية لعناصر النظام البيئي والتفاعل السيميأخلاقي بينها.

تعالج هذه الدراسة إشكالية بيئة لكن من خلال نص أدبي، توضح كيف يدرك الشاعر أهمية التفاعل السيميائي مع عناصر الطبيعة وبينها، وكيف تبني هذه العناصر عوالمها السيميائية، وكيف مثل النص هذه العوالم. وتنطلق من ذلك إلى بيان دور الكشف عن هذه العلاقات في النصوص الأدبية في الحفاظ على النظام البيئي؛ إذ إن الإنسان عندما يتمثل عوالم العناصر البيئية ويتواصل معها؛ يرتبط معها بعلاقة سيميأخلاقية؛ تجعله يدرك كيف لهذا العالم أن يستمر في

الحفاظ على نفسه حيًا متوازنًا.

المبحث الأول: الأدب والبيوسيميائيات والنظام البيئي:

1- الأدب والنظام البيئي: منذ القدم يرتبط الأدب بالنظام البيئي بعلاقة متينة، فهناك نصوص تتمثل الطبيعة من حولها، وتحاورها، وتمثل تفاعلاتها، أو تفاعلات المبدع معها. فمنذ أن تكلم الإنسان وعرف التعبير ارتبط بالبيئة في إنشاء نظامه اللغوي، وخاصة في الجانب المتخيل منه؛ إذ البيئة تشكل رافدًا أساسيًا للخيال الأدبي.

والنظام البيئي هو «وحدة تنظيمية في حيز معين تحتوي على عناصر حية وغير حية تتفاعل مع بعضها». (مزاهرة، 2010، 46) هناك عنصران رئيسيان في النظام البيئي، وهما: الأنواع والبيئة. تحتاج الأنواع إلى التفاعل مع بعضها وتحقيق التوازن بين بعضها (على الرغم من أن بعض الأنواع قد تلعب دورًا رائدًا في بعض الأحيان) وبيئة تدعم الاحتياجات البيئية للأنواع حتى تتمكن من الاستمرار جيلًا بعد جيل. (Chang & West, 2006, 3) يتعالق الأدب مع البيئة من خلال ثلاثة أمور: الأول- تمثيل الأدب للبيئة الطبيعية، الثاني- الوعي بالبيئة والإحساس بها والتفاعل معها، الثالث: الدفاع عنها، ونشر الوعي بها، أي أن يكون نشر الوعي البيئي هو موضوع الأدب. والفرق بين الثاني والثالث، أن الثاني يكون خاصًا بالمؤلف (يشعر به القارئ وربما اتخذ موقفًا مماثلًا) ويكون إحساسًا وتفاعلًا ووعيًا ذاتيًا، لكن لا يكون الغرض التوعية أو تبني موضوعات البيئة، بل هو أدب ذاتي، يكون تعبيرًا عن موقف المبدع وتفاعله مع البيئة، بعكس الثالث، الذي لا يكون وعيًا ذاتيًا خاصًا، بل دعوة إلى الوعي أو تبني الموضوعات البيئية وإثارة مشكلاتها والإشارة إلى أسبابها وعلاجها.

وعلى ذلك، فالعلاقة الثالثة علاقة حديثة، بعكس الأولى والثانية، فهما موجودتان منذ أن وجد الخيال الأدبي، فقد كان جزء من هذا الخيال مرتبطًا بالبيئة يتمثلها ويمثل حالات الوعي بها، وهو ما يطلق عليه لورانس بويل "الخيال البيئي The Environmental Imagination" ويقصد به «الكيفية التي تشكل بها البيئة المادية الخيال». (توشيتش 2018,، 331) أي أننا أمام أدب له حساسية للبيئة وموضوعاتها، فالخيال البيئي يحتاج إلى «حساسية أكبر بالطبيعة أو الواقع، وهي حساسية أشبه بالتصوف الروحاني». (محمد، 2022، 463) ويتعلق الأمر –من وجهة نظر بويل- بتصوير الطبيعة وعلاقة البشرية بها، ويتجاوز الأمر عنده تمثيل الطبيعة إلى الدفاع عنها، بوصفها كائنًا له طبيعته الخاصة. (Buell, 1995, 2 & 52) مثلما قلتُ سابقًا، علاقة الأدب بالبيئة قديمة، ولكن الجديد هو الحديث عنها ومقاربتها نقديًا، جاء ذلك نتيجة عدد من الأزمات والمشاكل البيئية، التي تسبب بها الإنسان غالبًا، والهدف من مقاربة هذه العلاقة أخلاقي توعوي في الغالب، فيه تنبيه للإنسان إلى قيمة الطبيعة، وتسعى إلى دمجه فيها، يتفاعل معها ويشعر بمشكلاتها. ومن هنا جاء مصطلح "الاستدامة Sustainability" (وهو مصطلح له صلة كبيرة بموضوع الدراسة)، ويصف هذا المصطلح «كيفية بقاء النظم الحيوية متنوعة ومنتجة مع مرور الوقت، والاستدامة بالنسبة للبشر هي القدرة على حفظ نوعية الحياة، التي نعيشها على المدى الطويل، وهذا يعتمد بدوره على حفظ العالم الطبيعي، والاستخدام الصحيح للموارد» (نجاح، 2020، 323) ولكن ما علاقة هذا المصطلح بالأدب؟ يجيب هاني علي محمد بأن «هذه الاستدامة تضع النصوص الأدبية أمام شرط مهم يجب تحققه في تناولها البيئي، يتمثل في ترك شعور إيجابي داخل متلقي هذه النصوص تجاه كل ما هو بيئي، وهو بُعْد مهم يسهم في تربية الشعور البيئي بداخله، ويُعزّز انتماءه للمنظومة البيئية». (محمد، 2022، 463)

ومن هنا، فما هو جديد هو تنبه الباحثين إلى أهمية تسليط الضوء على هذه العلاقة (علاقة الأدب بالنظام البيئي) لما لهذا من دور في مواجهة المشكلات البيئية المتزايدة. فظهر النقد البيئي في تسعينات القرن الماضي، وهو «مصطلح شامل لمجموعة من الأساليب النقدية التي تستكشف التمثيل في الأدب (والأشكال الثقافية الأخرى) للعلاقة بين البشري وغير البشري، في الغالب من منظور القلق حول التأثير المدمر للبشرية على المحيط الحيوي.» (Marland, 2013, 846) ويرى مارلان أن هذا الاتجاه النقدي بدأ في السبعينيات، وأن موضوعه هو دراسة كتابة الطبيعة وتمثيلات البيئة الطبيعية في الأدب. (Maran 2014b) ويسعى إلى استكشاف معاني البيئة في النصوص الأدبية والفكر النظري، العناية بالنصوص التي تعاملت بشكل صريح مع الطبيعة، والعناية بالأدب الريفي، وإعادة تفحص مضامين تصوراتنا عن البيئة. (الحسامي، 2009، 257) فالنقد الأدبي البيئي يمتد أيضا ليحلل الجوانب الثقافية والأدبية المؤثرة في رؤية الكاتب، ويهتم بالكشف عن الوظيفة البيئية المتوارية خلف الصفة الجمالية، كما يُعنى بالتفتيش عن سبب حضور البيئة في النص الأدبي، ومكونات الطبيعة المعبر بها في الصور البلاغية، وما ينطوي عليه العمل من قيم بيئية، بالإضافة إلى الكشف عن وجهات النظر الخاصة بالبيئة داخل النص، ورصد رؤى المبدعين تجاه البيئة، ودراسة القيم الجمالية والأخلاقية، التي يحملها الأدب تجاه المنظومة الطبيعية. (محمد، 2022، 462) ونحن اليوم أمام مقاربة جديدة أكثر إلحاحًا على علاقة الإنسان بالطبيعة، وهي المقاربة المعتمدة على البيوسيميائيات أو النقد

البيوسيميائي، وهو ما سأوضحه في النقطة القادمة.

1. البيوسيميائيات والنص الأدبي.

يرتكز التحليل هنا على أحد الاتجاهات الحديثة في السيميائيات، الذي يطلق عليه "البيوسيميائيات Biosemiotics"، وهو اتجاه متعدد التخصصات يجمع بين السيميائيات وعلم الأحياء، هدفه البحث في عمل السيميوزيس في الأنظمة الحية: الحيوانية والنباتية. فهو يطارد المعنى، ليس في الأنشطة السيميائية البشرية (الثقافة البشرية) كما تفعل الاتجاهات السيميائية الأخرى، ولكن في أنشطة الطبيعة، أي يدرس عمليات المعنى في الطبيعة. في النقد والتحليل الأدبي المرتكز على البيوسيميائيات لا يكون البحث في عمليات السيميوزيس في الطبيعة مباشرة، بل من خلال تمثله في النصوص الأدبية. البيوسيميائيات -بحسب جيسبر هوفماير- «اسم مشروع علمي متعدد التخصصات يستند إلى الاعتراف بأن الحياة ترتكز بشكل أساسي على العمليات السيميائية». (Hoffmeyer, 2008, 3) ويعرفها إيميش بأنها «ذلك المجال الذي يدرس عمليات العلامة في الطبيعة في جميع الأبعاد». (Emmeche 1992) فهي حقل علمي حديث متعدد التخصصات يجمع بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، ويدرس عمليات السيميوزيس وصناعة المعنى في علامات الطبيعة، وما يتصل بهذا من عمليات وأنشطة سيميائية مختلفة، مثل أنظمة النمذجة والأمفيلت والتكافل السيميائي والسيميأخلاق وغيرها.

للبيوسيميائيات جذور عند جاكوب فان أوكسكيول وغيره من العلماء، لكن يمكن القول إن التطبيق الحقيقي والمباشر للسيميائيات في علم الأحياء بدأ مع توماس سيبوك Thomas Sebeok بدراساته حول التواصل غير اللفظي خلال ستينيات القرن المنصرم، ثم انتقل إلى دراسة الاتصال الحيواني، وأطلق على هذا العلم سيميائيات الحيوان Zeesemiotics. وفي الستينيات أيضًا قام فريدريش روثشايلد Friedrich Rothschild بتطبيق السيميائيات البيولوجية، وركز في المقام الأول على عمليات الدماغ. بدأت البيوسيميائيات مرحلة جديدة مع اكتشاف توماس سيبوك لـ(أوكسكيول) في السبعينيات، وبدأ في نشر أعماله. (Kull, 2015, 525) وما يميز منهج سيبوك -وإلى جانبه هوفماير- أنه يستند إلى تعريف (بورس) للعلامة. (Barbieri, 2008, 48) موضوع البيوسيميائيات هو كل ما يشكل سميوزيس في كل ما هو حيّ. وترى البيوسيميائيات أن كل الاتصالات القائمة بين الكائنات الحية (سواء الاتصالات الخارجية أو الاتصالات الداخلية) حتى على مستوى الاتصال بين الخلايا وداخل الخلية الواحدة؛ قائم على الشفرة/الترميز. وبما أنه كذلك؛ فما يصنعه ويصنع له وجودًا ومعنى حقيقيًا هو السيميوزيس. (الملجمي، 2021، 56)

النقد الأدبي البيوسيميائي هو اتجاه في النقد الأدبي والتحليل النصي يعتمد على ما تقدمه البيوسيميائيات من مفاهيم وأدوات. يعرف تيمو ماران "النقد البيوسيميائي" «بأنه دراسة الأدب والمظاهر الأخرى للثقافة الإنسانية مع التركيز على الفهم البيوسيميائي بأن الحياة، وصولًا إلى مستوياتها الأساسية، منظمة بواسطة عمليات العلامة». (Maran, 2014b, 260) ويعرفه كوليتا بأنه «شكل من أشكال النقد الأدبي والثقافي الذي يعتمد على البيوسيميائيات». (Coletta, 2021, 1) وعلى ذلك فإن النقد البيوسيميائي هو مدرسة متعددة التخصصات للنقد الأدبي والثقافي، وهو مدرسة واحدة تقضي على التمييز بين "الثقافتين" (البشرية وغير البشرية). في الواقع، يمكن القول إن النقد البيوسيميائي يشمل منهجية تقوم فيها العلوم الطبيعية بترتيب المفاهيم والتفكير المباشر في مجال إنساني، وتنظم فيها العلوم الإنسانية المفاهيم والتفكير المباشر في مجال علمي، وهذا الأخير هو التحقق من أي أيديولوجيات اختزالية أو ميكانيكية في المجال الأول. (Coletta, 2021, 1) ويعتمد النقد البيوسيميائي كثيرًا على النمذجة -نظرية أنظمة النمذجة (MST)- كما وسعها وطورها سيبيوك ودانيسي (2000). نظرًا لأن الحياة نفسها هي سيميوزيس، ويمكن اعتبار النقد البيوسيميائي مشروع نمذجة، (Coletta, 2021, 2) يتضمن، كما كتب (Maran 2014b)، "نمذجة سيميائية الحيوان zoosemiotic"، و"النمذجة اللغوية" و"النمذجة الفنية". ويمكن تطبيق استراتيجيات النمذجة الثلاثة لـ (أ) لدراسة كيفية إدراك البشر لبيئاتهم، أو (ب) لدراسة كيفية تمثيل البشر تلك البيئات المتصورة في الأعمال الأدبية.

ولأن تجربة المستويات الرمزية للمعنى هي شيء متاح للحيوانات؛ فإنه يمكن لممارسي النقد البيوسيميائي "تصنيف" الأعمال الأدبية بناء على مدى استكشافهم لما يُسمى "الظواهر البيوسيميائية"، وهي أبعاد الخبرة المشتركة والإدراك مع الحيوانات بطرق كان العلم التقليدي أعمى عنها. (Coletta, 2021, 8) وبما أن البيوسيميائيات «تفتح كلا من العالم الطبيعي للتفسير الأدبي والعالم الأدبي للتفسير البيولوجي، في السياق البيوسيميائي، يفتح التفسير الأدبي العالم للعلماء لتوظيف المصطلحات النقدية الأدبية في دراستهم للحياة» (Coletta, 2021, 18)؛ فإنه يمكن دمج تمثيلات الطبيعة في الثقافة البشرية، وتمثيلها في النص الأدبي، هذا النص الأدبي هو "نص الطبيعة" كما يسميه "تيمو ماران"، ويشير عنده «إلى الوحدة التي تتشكل من خلال علاقات المعنى بين النص المكتوب الذي يتحدث عن الطبيعة ويشير إلى الطبيعة والجزء الموصوف من البيئة الطبيعية نفسها. ويمكن لمثل هذا التفاعل أن يشكل بشكل كبير التفسيرات المحتملة للنص، خاصة في الحالات التي تكون فيها علاقات العلامة مع البيئة المحلية أكثر كثافة من المعاني الثقافية» (Maran, 2014b, 269) ومن هنا يتضح أن تطبيق الأدوات التي تقدمها البيوسيميائيات على النص الأدبي يشكل طريقة ناجعة في التحليل الأدبي "النقد البيوسيميائي" تكشف عن العمليات السيميائية للطبيعة في النص

المبحث الثاني- العالم السيميائي (الأمفيلت) للجبل: في هذا المبحث سأناقش كيف أعطى الشاعر الجبلَ أمفيلتًا، ومثله في النص، وما وضع الجبل في أمفيلت الشاعر. الشاعر يتواصل مع الأشياء بناء على أمفيلته الخاص، والجبل شيء في الطبيعة، جعل منه الشاعر كائنًا حيًا، وأعطاه أمفيلتًا، ومن خلال هاتين العمليتين حدث التواصل بين الشاعر والجبل،

ومن عملية التواصل هذه تولد معنى النص.

1- الأمفيلت: مفهوم جاكوب فون أوكسكيول Jacob von Uexkiill وأخذه عنه توماس سيبوك Thomas A Sebeok وطوره، واللفظ مأخوذ من الألمانية، وتعني "البيئة المحيطة"، ويُعرف هذا المصطلح غالبًا بأنه "العالم المتمركز حول الذات". (الملجمي، b2021، 142) (الملجمي، 2023، 107) ويعني العالم السيميائي للكائن الحي، ويشمل كل مظاهر المعنى في العالم الخاص بالكائن الحي. وهو سمة مهمة ورئيسية للكائنات الحية والأنظمة السيميائية. وكل عنصر في الكون الذاتي له معنى، وبذلك فهو قادر على التفاعل والتواصل. يقوم الكائن الحي بإنشاء كونه الذاتي الخاص وإعادة تشكيله عندما يتفاعل مع العالم، فيما يسمى بـ"دائرة وظيفية". (Kull, 1998, 304) مفهوم جاكوب فون أوكسكيول Jacob von Uexkiill وأخذه عنه توماس سيبوك Thomas A Sebeok وطوره، واللفظ مأخوذ من الألمانية، وتعني "البيئة المحيطة"، ويُعرف هذا المصطلح غالبًا بأنه "العالم المتمركز حول الذات". (الملجمي b2021، 142) (الملجمي، 2023، 107) ويعني العالم السيميائي للكائن الحي، ويشمل كل مظاهر المعنى في العالم الخاص بالكائن الحي. وهو سمة مهمة ورئيسية للكائنات الحية والأنظمة السيميائية. وكل عنصر في الكون الذاتي له معنى، وبذلك فهو قادر على التفاعل والتواصل. يقوم الكائن الحي بإنشاء كونه الذاتي الخاص وإعادة تشكيله عندما يتفاعل مع العالم، فيما يسمى بـ"دائرة وظيفية". (Kull, 1998, 304)

1. **أمفيلت الجبل:** الجبل من خلال تمثيل النص له يملك أمفيلتًا، يمكننا ملاحظته من خلال إدراكه للأشياء المحيطة به، أي أن أمفيلت الجبل في النص هو الأشياء التي يتفاعل معها الجبل، والكيفية التي يدركها بها بوصفها علامات في النص. يقول ابن خفاجة: (ابن خَفَاجة، 1994، 48،49)

وَقالَ أَلا كَم كُنتُ مَلجَأَ قاتِلٍ *** وَمَوطِنَ أَوّاهٍ تَبَتَّلَ تائِبِ
وَكَم مَرَّ بي مِن مُدلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ *** وَقالَ بِظِلّي مِن مَطِيٍّ وَراكِبِ
وَلاطَمَ مِن نُكبِ الرِياحِ مَعاطِفي *** وَزاحَمَ مِن خُضرِ البِحارِ غَواربي
فَما كانَ إِلّا أَن طَوَتهُم يَدُ الرَدى *** وَطارَت بِهِم ريحُ النَوى وَالنَوائِبِ
فَما خَفقُ أَيكي غَيرَ رَجفَةِ أَضلُعٍ *** وَلا نَوحُ وُرقي غَيرَ صَرخَةِ نادِبِ
وَما غَيَّضَ السُلوانَ دَمعي وَإِنَّما *** نَزَفتُ دُموعي في فِراقِ الصَواحِبِ
فَحَتّى مَتى أَبقى وَيَظعَنُ صاحِبٌ *** أُوَدِّعُ مِنهُ راحِلاً غَيرَ آيِبِ

يتكون هذا الأمفيلت من جزئين، الجزء الأول أشياء يدركها الجبل على أنها ظاهرة (علامات) تشير إلى موضوع (الفناء، التغير)، وهذه الأشياء هي: (القاتل، الأواب المتبتل، المدلج، المؤوب، المطي، الراكب، الرياح، البحار). وهذه الأشياء ينظر إليها الجبل على أنها علامات على الفناء، فمجيؤهم ورحيلهم دليل فناء، ودليل تغير، فتكرار هذه الأمور (قاتل يموت، أو يذهب، ويأتي آخر، وهكذا مع بقية الأشياء) علامة على ثبات الجبل، وتغير الأشياء من حوله. ولذلك، كما سيأتي، فإن النص يصف الجبل بأنه "مُفْكِر بالعواقب"، أي: مدرك لهذه الظواهر، فهو يتفاعل معها ويؤولها، فهي بالنسبة له علامات على تغيير الكون من حوله، وعدم ثباته.

الجزء الثاني من أمفيلت الجبل الممثل في النص: أشياء يدرك الجبل عملياتها السيميائية، فهو يؤولها بحسب الأمفيلت الذي أعطاه لها، ومن ثَمَّ فهو يؤول العلامات التي تنتجها هذه الأشياء؛ فهي تحيل عنده على موضوعات مختلفة، وهذه العلامات هي: خفق الأيك (الشجر)، نوح الورق (الحمام)، الصاحب. فهو يؤول "خفق الأيك" بأنها "رجفت أضلع" لخائف التجأ إليه، و"نوح الورق" بأنها "صرخة نادب"، الذي يلجأ إليه صاحب، وعندما يرحل عنه يودعه وداع الصاحب لصاحبه.

وهكذا، فإن النص يمثل الجبل بوصفه كائنًا حيًا، له أمفيلت يتفاعل من خلاله مع الأشياء من حوله، ويؤولها ويدركها، ويمكننا تمثيل هذا الأمفيلت من خلال الشكل الآتي:

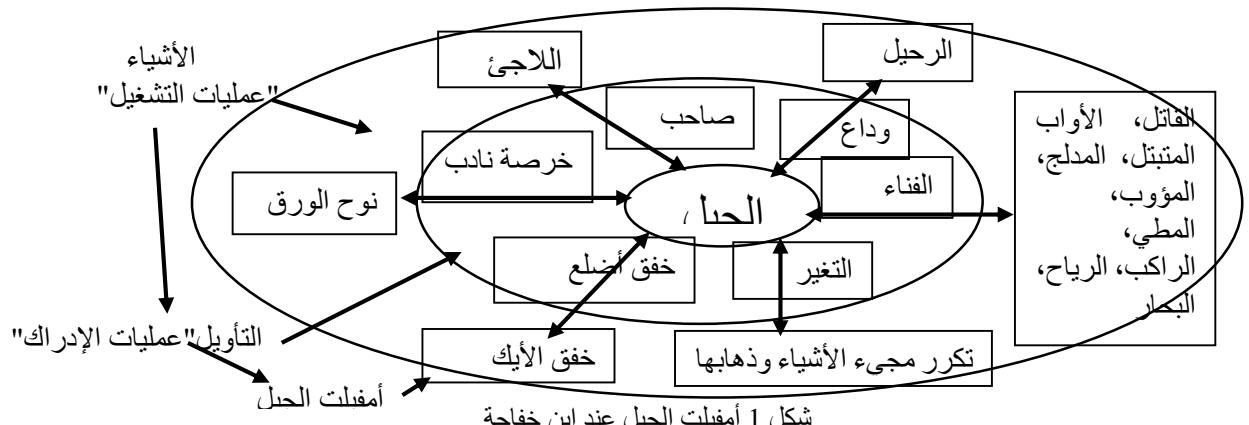

شكل 1 أمفيلت الجبل عند ابن خفاجة

نلاحظ أن أمفيلت الجبل قد بُني من خلال "إعطائه" وظيفة إدراكية تتمثل في الاستشعار، فهو يستشعر العالم حوله، والأشياء تأتي إليه، فيستشعر وجودها وموضوعها، وهو في ذلك يستند إلى ثباته وشموخه.

وينطلق أمفيلت الجبل عند امرئ القيس من مكانة الجبل في عقل العربي القديم، بوصفه رمزًا للقوة والخير، وبصفه معادلًا للأنفة والصبر وتحمل الشدائد وكر الدهر وعوامل الطبيعة. يقول امرؤ القيس واصفًا نزول المطر على عدد من جبال شبه الجزيرة العربية، وتفاعلها معه ومع الأشياء حولها: (الزَّوْزَني، 2002، 74 وما بعدها)

على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أيْمَنُ صَوْبِهِ *** وأيْسَرُهُ على السّتارِ فَيَدْبُلِ

فأضْحَى يَسُحُّ الماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ *** يكُبّ على الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

وَمرّ عَلَى القَنَّانِ من نَفَيانِهِ *** فَأَنْزَلَ منه العُصْمَ من كلّ منزِلِ

وَتَيْمَاءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نخلَةٍ *** ولا أُطُمًا إلا مَشيدًا بِجَنْدَلِ

كأنّ ثَبيرًا في عَرانينِ وَبْلِهِ *** كَبيرُ أُناسٍ في بجاد مُزَمَّلِ

كأنّ ذُرَى رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً *** من السّيلِ والأغْثاء فَلكة مِغزَلِ

وألقى بصَحراءِ الغَبيطِ بَعاعَهُ *** نزُولَ اليماني ذي العيابِ الْمحمّل

كَأَنَّ مَكاكيّ الجواء غُدَيّةً *** صُبحنَ سُلافًا مِن رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

كأنّ السّباعَ فِيهِ غَرْقَى عَشِيّةً *** بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أنابيشُ عُنْصُلِ

نلاحظ أن الشاعر يصنع أمفيلت الجبل من خلال علاقته بالمطر والأشياء الأخرى التي تسكنه ويتخلص منها بسبب المطر، مثل الحيوانات (العصم/الوعول) والنبات (الدوح/الشجر، جذوع النخل) والأشياء الأخرى (الأطم/البيوت). فكيف ينظر الجبل إلى المطر؟ (المطر في أمفيلت الجبل، كما يمثله النص). لا يذكر النص ذلك مباشرة، ولكنه يفهم من خلال السياق. يؤول الجبل نزول المطر على أنه تَطُهر من الأدران وإعادة إحياء الأرض، فهو يتزين بنزول المطر:

كأنّ ثَبيرًا في عَرانينِ وَبْلِهِ *** كَبيرُ أُناسٍ في بجاد مُزَمَّلِ

وهو مسرور لما زود به الصحراء من السيل والشتلات والبذور:

وألقى بصَحراءِ الغَبيطِ بَعاعَهُ *** نزُولَ اليماني ذي العيابِ الْمحمّل

فالمطر ألقى «ثقله بصحراء الغبيط فأنبت الكلأ وضروب الأزهار، وألوان النبات، فصار نزول المطر به كنزول التاجر اليماني صاحب العياب المحمل من الثياب حين نشر ثيابه يعرضها على المشترين؛ شبه نزول هذا المطر بنزول التاجر وشبه ضروب النبات الناشئة من هذا المطر بصنوف الثياب التي نشرها التاجر عند عرضها للبيع؛ وتقدير البيت: وألقى ثقله بصحراء الغبيط فنزل به نزولًا مثل نزول التاجر اليماني صاحب العياب من الثياب». (الزَّوْزَني، 2002، 77)

أما إدراكه للأشياء الأخرى، مثل الحيوانات والنباتات والجماد، فإنه يرى في ذهاب بعضها تجديدًا للحياة، فأنْ يجرف المطر بعض الحيوانات والأشجار، ويهدم بعض البيوت، فتلك سنة الحياة؛ لأن المطر نفعه أكبر من ضرره؛ لذلك وصف في آخر هذه الأبيات كيف ازدانت الصحراء بالمخلوقات والخلق الجديد.

2. الجبل في أمفيلت الشاعر:

الجبل يقع ضمن الأشياء التي يتفاعل معها الشاعر ويدركها، بل إنه الشيء الرئيسي في نص ابن خفاجة؛ لذلك فهو يقع ضمن أمفيلت الشاعر، ولكن كيف يدرك الشاعر الجبل (كما يمثله النص)؟ كيف يرى الجبل؟ الجبل ممثل أو علامة تشير إلى موضوع، فما هو هذا الموضوع؟ الجبل وما يمثله للشاعر -علاقة الشاعر به سيميائيا- هو أمفيلت الشاعر بالنسبة إلى الجبل، فهو يقول في النص: (ابن خَفَاجة، 1994، 48، 49)

وَأَرعَنَ طَمّاحِ الذُؤابَةِ باذِخٍ *** يُطاوِلُ أَعنانَ السَماءِ بِغارِبِ

يَسُدُّ مَهَبَّ الريحِ عَن كُلِّ وُجهَةٍ *** وَيَزحَمُ لَيلاً شُهبَهُ بِالمَناكِبِ

وَقورٍ عَلى ظَهرِ الفَلاةِ كَأَنَّهُ *** طِوالَ اللَيالي مُفكِّرٌ في العَواقِبِ

أَصَخَتُ إِلَيهِ وَهوَ أَخرَسُ صامِتٌ *** فَحَدَّثَني لَيلُ السُرى بِالعَجائِبِ

وَقُلتُ وَقَد نَكَّبتُ عَنهُ لِطِيَّةٍ *** سَلامٌ فَإِنّا مِن مُقيمٍ وَذاهِبِ

فَأَسمَعَني مِن وَعظِهِ كُلَّ عِبرَةٍ *** يُتَرجِمُها عَنهُ لِسانُ التَجارِبِ

الجبل بالنسبة إلى للشاعر (كائن حي، شامخ، مفاخر،

وقور، يدرك الأحداث حوله "مفكر في العواقب"، يقول وهو صامت، مقيم، ثابت، واعظ). هذه الخاصيات التي أعطاها الشاعر للجبل هي التي تشكل موضوع الجبل عنده. قد يكون الأمر على مستوى اللغة الفنية فقط، أقصد في النمذجة الفنية؛ لأن النص لا يمثل نمذجة حقيقية للجبل، ولكن مشاركة الشاعر للطبيعة جعلته يعطيها بعض الخاصيات، أو أنه استشعر فيها تلك الخاصيات، بالنسبة لبعض هذه الخاصيات، فإنها حقيقية وموجودة في أمفيلت كل منا، فالجبل يمثل لنا موضوع الثبات والإقامة مع تغير الأزمان وتعاقب الأجيال. هذه الخاصية مهمة وأساسية في أمفيلت العالم الداخلي للجبل انطلق منها الشاعر -كما مر معنا في النقطة السابقة- ليبني أمفيلت الجبل، فالشاعر انطلق من استشعار الجبل في نفسه العظمة والثبات، ليجعل الجبل يؤول من خلاله كل الأشياء المحيطة به.

وفي قوله:

فَأَسمَعَني مِن وَعظِهِ كُلَّ عِبرَةٍ *** يُتَرجِمُها عَنهُ لِسانُ التَجارِبِ

يكون الجبل في أمفيلت الشاعر واعظًا، والعلاقة هنا قائمة على التشبيه (علامة أيقونية)، وهو النظام الذي يتقنه الإنسان؛ لأنه الحيوان السيميائي القادر على هذا المستوى من النمذجة.

ما الذي جعل الشاعر يؤول (يدرك) الجبل على هذا النحو؟ للإجابة عن هذا التساؤل يجب أن نفحص أمفيلت الشاعر والعوامل المؤثرة على إدراكه للأشياء من حوله. وقد التفت إحسان عباس إلى هذا الأمر، فرأى أنه قبل الخوض في علاقة ابن خفاجة بالطبيعة يجب أن نعود إلى حقائق أولية ضرورية في شخصية ابن خفاجة لفهم شخصيته وموقفه العام ونظرته إلى الحياة. (عباس، 1962، 204) ابن خفاجة شاعر طبيعة وجودي، «يرى الطبيعة في إطار الفناء، وضمن إحساسه بالتغير، وحسه الدقيق بالصراع بينه وبين الزمن». (عباس، 1962، 204) فهو يخلع على الطبيعة نظرته الوجودية، فهو يتعامل مع الأشياء ويدركها من خلال الفكر، أو (الثالثانية الثالثة) على حد تعبير بيرس.

والجبل في أمفيلت الشاعر امرئ القيس بسيط؛ لأن مدار الحديث في النص ليس عن الجبل، ولكن عن المطر الذي ينزل على الجبال فيجرده مما عليه من الحيوانات والنبات وغيرها. الشاعر يدرك الجبل بوصفه رمزًا للأنفة والعظمة والشرف والخير، فهو شامخ برغم تعرضه لكل ذلك المطر، الجبل لم يتضرر من المطر، بل ساعده المطر على التخلص من الأشياء الزائدة. والجبل مبتدأ الخير؛ فالمطر ينزل عليه فتحتمل السيول قاصدةً الأودية والصحاري، فتنشأ بسببه حياة مكتملة الأركان.

إدراك الجبل أو تأويله على هذا النحو له ما يبرره في العالم السيميائي للشاعر، فالشاعر عربي بدوي، ينتمي إلى أمة تعيش (في ذلك الزمان) متتبعة الماء والكلأ، ومترقبة نزول المطر. فعندهم المطر يساوي الحياة، ذلك المطر الذي تستقبله الجبال وتصبه سيلًا نحو الوديان والقيعان، فالجبل عندهم مرتبط بالمطر، المرتبط بالحياة، فهذه العلاقة القرينية (السبب والنتيجة) = الجبل سبب للمطر والسيل، وهذا الأخير سبب في الحياة، فالعلامة هنا علامة قرينية، فالشاعر يدرك الجبل من خلال هذه العلامة/العلاقة.

ويدرك الشاعر الجبل أيضًا من خلال علاقة أيقونية، يكون فيها الجبل شبيهًا بقائدٍ فارسٍ شامخٍ، يضحي بنفسه من أجل أن تعيش قبيلته، وهكذا الجبل، يخضع للتجريف من أجل حياة الطبيعة حوله.

المبحث الثالث- التواصل مع الجبل: علاقات سيميائية:

1. الجبل والشاعر والطبيعة: علاقة سيميأخلاقية:

مفهوم "السيميأخلاقيات semioethics"، قدمته سوزان بيتريلي في 2004، ثم قدمته مع أوغوستو بونزيو 2005، وتهتم السيميأخلاقيات بـ"رعاية الحياة"، ولكن من منظور عالمي حيث تتزامن السيميوزيس والحياة. تقول سوزان وأغوستو «نقترح مصطلح "السيميأخلاقيات" لتسمية نهج أو موقف نراه ضروريًا اليوم أكثر من أي وقت مضى في سياق العولمة. لا يُقصد من السيميأخلاقيات أن يكون تخصصًا في حد ذاته، ولكن أن يكون منظورًا وتوجهًا في دراسة العلامات». (Petrilli & Ponzio, 2009, 150) القضية الرئيسية للسيميأخلاقيات هي "العناية بالحياة" أو "رعاية الحياة" من منظور عالمي يتلاقى بموجبه السيميوزيس والحياة. (Petrilli & Ponzio, 2009, 151) «العلاقة المتبادلة بين مستوى تفسير العلامة والمستوى الأيديولوجي للخطاب هي محور رئيسي آخر في السيميأخلاقيات التي بموجبها لا يمكن فصل اللغة والأيديولوجية». (Petrilli & Ponzio, 2009, 154)

إذا كانت السيميأخلاقيات تعني رعاية الحياة، فإنه يُلاحظ نوعين من رعاية الحياة في وصف ابن خفاجة للجبل:

الأول: الجبل الذي يرعى الحياة لرعايته لسيميوزيسات الأشياء حوله (فما خفق ورقي، ولا نوح أيكي) ومن هنا فقد جعل الشاعر الجبل يدرك سيميوزيس الأشياء الأخرى، أي أنه أعطاه صفة ميتاسيميوزيسية، وهو بذلك يجعل منه حيوانًا سيميائيًا، ومن هنا فهو يؤدي دورًا في القيام بالمسؤولية السيميأخلاقية.

الآخر: الشاعر عندما يهتم بالجبل والطبيعة حوله، وبما يفكر فيه الجبل. إن مشاركة الجبل الأفكار والمشاعر من قبل الشاعر، وتمثيل ما يدركه الجبل، أو ما يفترض أنه يدركه؛

إن في ذلك تقديرًا للطبيعة والحياة، ورعاية لها، إلى جانب وصف العمليات السيميائية للجبل، وهو ما يعني رعايةً لسيميوزيس الجبل والطبيعة حوله، وذلك يعني من وجهة نظر البيوسيميائيات، عناية بالحياة؛ لأن السيميوزيس = الحياة.

في هذه النقطة نلاحظ أن الشاعر يقوم بنمطين من السيميأخلاقيات تجاه الجبل:

- إدراك سيميوزيس الجبل والكائنات الحية الأخرى التي مثلها النص، وفي ذلك رعاية للسيميوزيس، وهذا هو جوهر السيميأخلاقيات؛ لأن في رعاية السيميوزيس رعاية للحياة.
- تقدير الطبيعة من خلال وصف الجبل والطبيعة أو الأشياء المتفاعلة معه منها، فهو يقدر الطبيعة عندما يلتفت إليها مبجلًا، ولا ينظر إليها -كما هي النظرة المادية النفعية- على أنها منافع للإنسان، يعمل بها ما شاء من التدمير والتخريب، بل ينظر إليها (أمفيلت الشاعر، كما أوضحت أعلاه) على أنها جزء من عالمه السيميائي، لذلك يتفاعل معها سيميائيًا، ويدرك عملياتها السيميائية، بل إنه يصنع لبعضها عمليات سيميائية غير موجودة، زيادة في تقديرها، وبعثًا للحياة فيها، فالجبل يحدثه، ويصنع له أمفيلتًا -كما مر في المبحث السابق- يدرك من خلاله الأشياء والظواهر حوله.

ومن تقدير الشاعر لطبيعة الجبل أنه في أمفيلت الشاعر يمثل مكانة مميزة، فهو يخلع عليه صفات العظمة والشرف، ويدركه بوصفه كائنًا حيًا يدرك الأشياء حوله، ويحدث الشاعر بها، ويدركه وبوصفه واعظا.

السيميأخلاقيات -خاصة في تعالقها مع المحافظة على النظام البيئي- أكثر وضوحًا في نص امرئ القيس (الذي أوردناه أعلاه)، ويمكننا ملاحظة ثلاثة أنماط للسيميأخلاقيات في النص:

الأول: في وصف الطبيعة تقديرٌ لها، حتى إنه ليسمي الجبال بمسمياتها: قطن، الستار، يذبل، القنّان، ثبير، رأس المجيمر؛ بما توحي به التسمية من تقدير وتبجيل وأنسنة.

الثاني: إدراك سيميوزيس الجبل، أو حتى الأمفيلت المفترض للجبل، فيه رعاية للسيميوزيس الطبيعة، وفي هذا رعاية للحياة.

الثالث: الجبل يرعى الحياة، فهو يرعاها سيميائيًا من خلال تفاعله معها وإدراكها بوصفها علامات، فهو يتفاعل معها، ويؤولها (المطر، الحيوانات، النبات)، ويرعاها كذلك ماديًا، فهو الذي يتلقى زخات المطر الذي يعريه من حلته وأحيائه، حتى لكأنه في بداية المطر "كبير أناس في بجاد مزمل"، فيجرده المطر من ذلك كله، لكنه لا ينظر إلى هذا إلا بوصفه أمرًا إيجابيًا؛ لأن المطر يحتمل سيلًا تُروى به الأرض، فتحيا وتزدهر، فكأن في تجريفه حياة للطبيعة من حوله، واستمرار للحياة.

2. التفكير مثل جبل: النص والنظام البيئي:

ينطلق ابن خفاجة من أمفيلت الجبل الذي أعطاه إياه في نصه ليفكر مثل الجبل، فالجبل ليس مُفَكَّرًا فيه أو له، بل هو المُفَكِّر "مُفْكِرٌ في العواقب"، فالجبل يفكر في حالة الوجود، في تقلب أحواله وتغيره وتجدده، فالهاربون إليه والملتجئون إليه يتجددون وتختلف أحوالهم، ويذهبون، وتبقى الطبيعة صامدة في وجه الدهر، فهو يفكر في كل ما حوله وفي طبيعة الحياة والكيفية التي تمضي بها.

والشاعر يمثل في نصه الجبل بهذه الصورة ليكون صورة له يفكر مثله، وليجعل القارئ يفكر بهذه الطريقة، أي أنه يجب علينا أن نفكر مثل الجبل؛ لكي ندرك حقيقة هذا الوجود وتوازن الطبيعة وطريقة سيرها، فهناك كثير من الأشياء الطارئة المتغيرة المتباينة (القاتل، الأواب، المدلج، المؤوب، الرياح، المطر)، وهناك أشياء ثابتة تشهد على هذا التغير.

وانطلاقًا مما توصلنا إليه في النقطة السابقة بخصوص سيميأخلاق نص امرئ القيس، فإننا نجد تقاربًا كبيرًا بين نظرة امرئ القيس للجبل، ونظرة ألدو ليوبولد، فإذا كان هذا الأخير يرى أن الجبل يفكر في التوازن البيئي، وطبيعة هذه الحياة، التي تقتضي وجود الذئب والغزال؛ لأن اختفاء أحدهما يقضي على الآخر، بل على النظام البيئي بأكمله، فالجبل يفكر كيف أن غياب الذئاب عنه أدى إلى زيادة عدد قطعان الغزلان، وذلك أدى إلى تجريف مساحات واسعة من الجبل؛ مما أدى إلى أن الجبل أصبح أجردًا بسبب تزايد عدد الغزلان، إلى أن وصل الأمر بها إلى الموت من الجوع. الخلاصة التي يصل إليها ألدو ليوبولد أن الجبل يفكر بأن الحياة خلقت متوازنة، وأن محاولة تغييرها يدمرها، وأن التقليم (أن تذهب بعضها أو يضحى ببعضها) من أجل أن يعيش البقية وتبقى الحياة، هو أمر حتمي وجوهري في الطبيعة؛ فهذا هو الحال في نظرة امرئ القيس للجبل، أي أننا يجب أن نفكر مثل الجبل المسرور بالمطر، الذي ينظر إلى الجرف الذي يتسبب به المطر للحيوانات والنباتات والبيوت على أنه تقليم (تضحية) في سبيل بقاء الطبيعة وتجدد الحياة.

لاحظ كيف أن التجريف والتقليم في قوله:

وَمرّ عَلَى القَنَّانِ من نَفَيانِهِ *** فَأَنْزَلَ منه العُصْمَ من كلّ منزِلِ

وَتَيْمَاءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نخلَةٍ *** ولا أُطُمًا إلا مَشيدًا بِجَنْدَلِ

يؤدي إلى الحياة في قوله:

وألقى بصَحراءِ الغَبيطِ بَعاعَهُ *** نزُولَ اليماني ذي العيابِ الْمحمّل

كَأنَّ مَكاكيّ الجواء غُدَيّةً *** صُبحنَ سُلافًا مِن رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

كأنّ السّباعَ فِيهِ غَرْقَي عَشِيّةً *** بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أنابيشُ عُنْصُلِ

وهكذا، فإن النص يؤكد على حتمية التوازن البيئي القائم على تقليم الطبيعة لنفسها، وأن ذلك التقليم ليس ضررًا، بل هو على العكس من ذلك أمرٌ ضروري وحتميٌّ لاستمرار الحياة وبقاء الطبيعة.

ومن خلال الشكل الآتي يمكننا إعطاء مقارنة بسيطة بين التفكير مثل جبل، عند ألدو ليوبولد وعند امرئ القيس، ودور ذلك في الحفاظ على النظام البيئي:

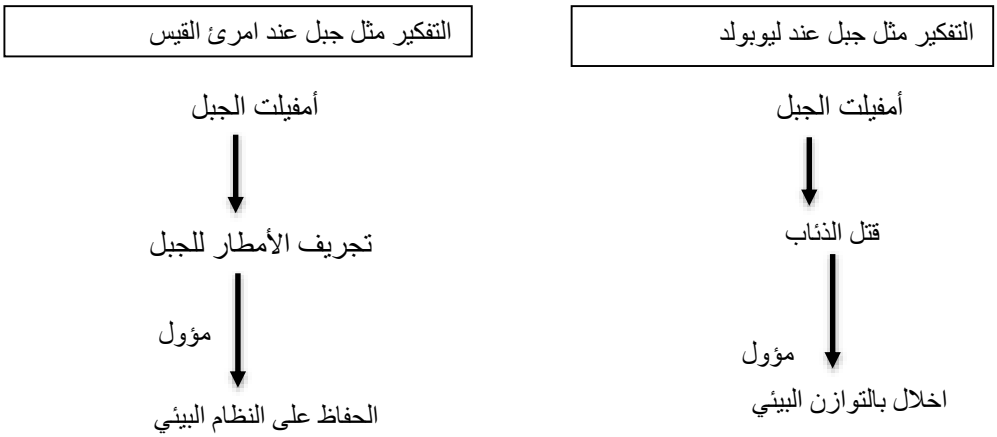

شكل 2 التفكير مثل جبل عند ليبولد وامرئ القيس

ممكن النظر إلى نص امرئ القيس هذا انطلاقًا من السببية النهائية عند بيرس، ومبدأه القائل بأن "قوة الكل في استدعاء أجزائه"، وهو مبدأ تبنته البيوسيميائيات؛ (Hoffmeyer 2008, 51) فإن الجبل في النص ليس إلا جزءًا من الكل (نظام شامل)، وقوة هذا الكل في استدعاء أجزائه: المطر، النبات، الحيوان، الجماد، الجرف، السيل، ...إلخ.

فالكل هنا هو كل عمليات المطر وما يتسبب به، والعمليات المرتبطة بها، والسابقة واللاحقة لها، وهي عمليات تخلق سياقًا تحدث فيه السببية. لكن بالنسبة إلى بيرس والبيوسيميائيين السببية هنا ليست ديناميكية، ولا هي السببية الفعَّالة، بل هي سببية تركز على النتيجة العامة أو الغاية (Coletta 2021, 128)، والغاية أو النتيجة العامة من كل العمليات الموصوفة في النص هي إعادة الخلق وتجديد الحياة واستمرارها. وما الجبل وسكانه من حيوان ونبات وغيرها إلا أجزاء في ذلك الكل، ويمكن النظر إليها بوصفها فرائس في قانون "المفترس والفريسة" في قوانين الطبيعة. فالسببية النهائية هي الفعل النهائي الذي ينتج الأجزاء لأنها ضرورية لتكوين الكل، فالدمار الذي يحصل للجبل من المطر ليس إلا إعادة خلق وبعث للحياة.

النتائج:

يستغل النقد الأدبي البيوسيميائي المفاهيم والآليات التي تقدمها البيوسيميائيات لمقاربة النص الأدبي، ويعتمد على تمثيلات الطبيعة والنظام البيئي في النص. ومن هنا قاربت هذه الدراسة وصف الجبل عند امرئ القيس وابن خفاجة (بوصفهما نموذجين لوصف الجبل في الشعر العربي القديم) انطلاقًا من مبدأ "التفكير مثل جبل" لألدو ليدبولد، واعتمادًا على آليات النقد البيوسيميائي، وتوصلت الدراسة إلى الآتي:

- للجبل أمفيلته (عالمه السيميائي) الخاص في نصي الشاعرين.
- اعتمد النصان في بنائهما لأمفيلت الجبل على خاصيات سيميائية (إدراكية) للجبل أو استشعراها فيه.
- الجبل في العالم السيميائي للشاعرين كائن حي له صفات الأنفة والعزة والثبات، وهو مبتدأ الخير (في نص امرئ القيس)، وهو الواعظ (في نص ابن خفاجة). وينطلق كل من الشاعرين في إدراكه للجبل على هذا النحو من نظرته التأملية الوجودية، فهذا الإدراك له ما يبرره في عالم الشاعر السيميائي.
- يمثل النصان نموذجين على السيميأخلاقيات التي تعني رعاية الحياة من خلال رعاية السيميوزيس، فالجبل يرعى الحياة من خلال إدراكه لسيميائية الأشياء حوله، والشاعر يرعى الطبيعة من خلال تقديره لها، واهتمامه بها، وتفاعله معها بوصفها جزءًا من عالمه السيميائي، وكذلك إدراك سيميوزيس الجبل من قبل الشاعر، إذ يمثل هذا سيمأخلاقيات؛ لأن الإدراك أساس الرعاية، فهو إدراك للطبيعة وتقديرًا لها.
- في النموذجين النصيين وعي بالطبيعة والنظام البيئي،

ومثال واضح على مبدأ "التفكير مثل جبل"؛ فالنصان يمثلان هذا المبدأ من خلال أمفيلت الجبل في النص، والجبل في أمفيلت الشاعر، وفي النصين دعوة للتفكير مثل جبل، الجبل الثابت، المفكر في العواقب، الصابر، "المسرور بالمطر" مع ما يسببه له من أضرار.

- يمثل النموذج النصي لامرئ القيس السببية النهائية، كما هي عند بيرس.

المراجع:

- ابن خَفَاجة، إبراهيم بن أبي الفتح. 1994. ديوان ابن خفاجة. تحقيق: ع .ف .الطباع .بيروت :دار القلم.
- توشيتش، جيليكا. 2018. ترجمة: سناء عبدالعزيز النقد البيئى :دراسة بينية فى الأدب والبيئة ".فصول . (102): 328-335.
- الحسامي، عبدالحميد سيف أحمد". 2009. الضباب أتى .. الضباب رحل :قراءة من منظور بيئي ".علامات في النقد . 18 (68، 89): 245-304.
- الزَّوْزَني، حسين بن أحمد. 2002. شرح المعلقات السبع . دار احياء التراث العربي.
- عباس، إحسان. 1962. تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين .بيروت :دار الثقافة.
- محمد، هاني علي سعيد"". 2022. النقدُ الأدبيُّ البيئيُّ؛ قراءةٌ في مُدوّنةِ الدراساتِ العربيّةِ البيئيّةِ، وممارسة تطبيقيّة على قصة 'رأيتُ النخلَ 'لرضوى عاشور ".".مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية . 26 (2): 456-491.
- الملجمي، علوي أحمد". 2021a. السيميائيات الحديثة : الأصول و الامتدادات ".سيميائيات (1)17: 31-66.
- الملجمي، علوي أحمد. 2021b. معجم مصطلحات السيميائيات الحديثة .القاهرة :دار عناوين بوكس.
- الملجمي، علوي أحمد". 2023. تشارلز سندرس بيرس وجاكوب فون أوكسكيول في السيميائيات الحديثة ".دراسات فلسفية. 51: 101-120.
- نجاح، الجبيلي. 2020. النقد البيئي :مقدمات، مقاربات، تطبيقات. العراق: دار شهريار.
- Barbieri, Marcello. 2008. "Biosemiotics: A New Understanding of Life." *Naturwissenschaften* 95(7):577–99.
- Buell, Lawrence. 1995. *The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing, and the Formation of American Culture*. Harvard University Press.
- Chang, Elizabeth, and Martin West. 2006. "Digital Ecosystems A Next Generation of the Collaborative Environment." *IiWAS* 214:3–24.
- Coletta, W. John. 2021. *Biosemiotic Literary Criticism: Genesis and Prospectus*. Vol. 24. Springer.
- Hoffmeyer, Jesper. 2008. *Biosemiotics: An Examination into the Signs of Life and the Life of Signs*. Vol. 2. University of Scranton Press.
- Kull, Kalevi. 1998. "On Semiosis, Umwelt, and Semiosphere." *Semiotica-La Haye Then Berlin*- 120:299–310.
- Kull, Kalevi. 2015. "Introduction to Biosemiotics." *International Handbook of Semiotics* 521–33.
- Leopold, Aldo. 1989. *A Sand County Almanac, and Sketches Here and There*. Oxford University Press, USA.
- Maran, Timo. 2014a. "Biosemiotic Criticism." Pp. 260–75.
- Maran, Timo. 2014b. "Biosemiotic Criticism: Modelling the Environment in Literature." *Green Letters* 18(3). doi: 10.1080/14688417.2014.901898.
- Marland, Pippa. 2013. "Ecocriticism." *Literature Compass* 10(11):846–68.
- Petrilli, Susan, and Augusto Ponzio. 2009. "Semioethics." Pp. 172–84 in *The Routledge companion to semiotics*. Routledge.
- Thiele, Leslie Paul. 2011. *Indra's Net and the Midas Touch: Living Sustainably in a Connected World*. MIT Press.